منهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

بين النظرية والتطبيق

دراسة تحليلية موازنة بين أهل السنة والمعتزلة

إعداد

دكتورة / أسماء منصور محمد عوض حجاز

المدرس بقسم العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنات فرع جامعة الأزهر بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، تحيرت العقول في حقيقة ذاته، وتخبطت الأفهام في أسمائه وصفاته، يا من دل على ذاته بذاته، وشهد بوحدانيته نظام مصنوعاته ومبدعاته، أشهد أن لا إله إلا أنت، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك ورسلك، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى كل من اهتدى بهديه إلى يوم الدين. وبعد

ففي دراستي لصفة (الإرادة الإلهية) أثناء إعدادي للرسالة التي نلت بها درجة العالمية، والتي كانت بعنوان(إرادة الله ومدى تعلقها بين علم الكلام واللاهوت المسيحي) وجدت اختلافاً بين علماء الكلام في تصنيف هذه الصفة ؛ فمن المتكلمين من عدَّها ضمن الصفات الذاتية، ومنهم من عدَّها ضمن الصفات الفعلية، بل منهم من نظر إليها باعتبارها صفة ذاتية وفعلية معاً، كذلك فإن منهم من نظر إليها باعتبارها صفة (معنى) أو صفة (وجودية) قائمة بذاته تعالى، ومنهم من نظر إليها باعتبارها صفة (سلبية).

فوقع في ذهني أثناء ذلك عدة تساؤلات لعل أهمها:

هل هذا الخلاف قاصر على صفة الإرادة فقط ؟ أم أن هناك اختلافاتٍ في تصنيف صفاتٍ أخرى ؟ ما الذي دفع بعلماء الكلام إلى

تقسيم الصفات الإلهية ؟ هل كانت هناك دوافع دفعتهم إلى تقسيمها ؟ أم أن هذه التقسيمات كانت من قبيل النضج العقلي أو الترف الفكري ؟ وعلى كلٍّ فمن أول من وضع هذه التقسيمات التي نتناولها بالبحث والدراسة ؟ هل انعكس ما مرَّ به علم الكلام من تطورات على مناهج علماء الكلام في تقسيم الصفات الإلهية بحيث وجدت في كل مرحلة من مراحله مناهج مختلفة في تقسيمها ؟

ما الذي أدى بعلماء الكلام إلى الاختلاف في تصنيف صفة الإرادة ؟ هل كان هناك اختلاف بين الفرق الكلامية في مفهوم أو حدِّ صفة الذات وصفة الفعل نفسهما بحيث أدى اختلاف الحدِّ أو الضابط إلى اختلاف ما يندرج تحت كل قسم من الصفات ؟ أم أن الاختلاف كان يعود لاختلافٍ حول مفهوم الصفة نفسها بين الفرق الكلامية ؟ وإذا كانت ضوابط المتكلمين قد اختلفت ؛ فما مدى دقة هذه الضوابط التي وضعوها في الجانب التطبيقي من حيث اندراج الصفات أو عدم اندراجها تحت كل قسم من الأقسام ؟ ومامدى توافق هذه الضوابط أيضاً مع المذهب العام لكل فرقةٍ في موقفها العام من مشكلة الصفات؟

إن مشكلة الصفات الإلهية على الرغم مما لها من أهمية وعمق في علم الكلام الإسلامي كأحد أهم المشكلات التي ساهم الجدل حولها في نشأته، بالإضافة إلى ذاك الكم الهائل من الصفحات التي سودت بحثاً فيها ؛ فإن هناك العديد من أوجه القصور أو التقصير من جانب

الدراسات الحديثة التي تتناول هذه المشكلة ؛ فلا نكاد نجد مؤلفًا واحداً من المؤلفات الحديثة - على حدٍّ علمي - عالج مناهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية في دراسة مستقلة بذاتها، بل مما يلفت النظر أن غالب المؤلفات الحديثة تقتصر على استخدام منهجٍ واحدٍ من مناهج علماء الكلام وهو منهج المتأخرين من الأشاعرة ؛ والذي يقسم الصفات الإلهية إلى صفاتٍ نفسيةٍ وسلبيةٍ ومعانٍ ومعنويةٍ، بل حتى في عرض هذا المنهج لا تكاد تتطرق تلك المؤلفات إلى أيِّ اختلاف ظهر بين المتكلمين في تصنيف الصفات الإلهية داخل هذا المنهج نفسه ؛ بالرغم من أن هناك اختلافاتٍ حول بعض الصفات كصفتي القدم والبقاء مثلاً ؛ فقد كان الأشعري - في أحد قوليه - ينظر إليهما نظرته إلى ما أطلق عليه المتأخرون (صفات المعاني) أو(الصفات الوجودية) ؛ فقد كان يقول إن الله تعالى قديمٌ بقدمٍ باقٍ ببقاءٍ ؛ بينما أدرج المتأخرون صفتي القدم والبقاء تحت قسم الصفات السلبية في ذاك المنهج.

ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة التي حاولت من خلالها تتبع منهجٍ من أهمِّ مناهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية ؛ وهو منهجهم في تقسيمها إلى صفاتٍ ذاتيةٍ وصفاتٍ فعليةٍ.

وقد هممت بدراسة هذا المنهج دون غيره من مناهج علماء الكلام نظراً لإهمال العديد من المؤلفات الحديثة له على الرُّغم من أهميته

وموقعه بين مناهج المتكلمين في تقسيم الصفات الإلهية ؛ فهو أول مناهج علماء الكلام ظهوراً على الساحة الكلامية ؛ وظل مستخدماً في جميع مراحل علم الكلام وأطواره.

وفي تناولي لهذا المنهج قمت بمحاولةٍ لتتبع جذوره لدى المتقدمين من علماء الكلام الإسلامي، ثم تناولت مفهوم علماء الكلام الإسلامي لصفات الذات وصفات الفعل، والمصطلحات التي استخدمها المتكلمون للدِّلالة على كلٍّ منهما، ثم الأسباب التي ترجع إليها اختلافات المتكلمين في تصنيف الصفات الإلهية داخل هذا المنهج ؛ والضوابط التي وضعتها الفرق الكلامية لتمييز الصفات الإلهية الذاتية من الصفات الإلهية الفعلية، والآثار التطبيقية لهذه الضوابط على اندراج الصفات تحت كل قسم، ومدى تأثير مفاهيم الصفات الإلهية وتأثرها بهذا المنهج في تصنيفها، ثم تناولت أهم الأحكام التي وضعتها الفرق الكلامية لكلٍّ من الصفات الذاتية والفعلية، وبينت ما كان موضعاً لاتفاقهم من هذه الأحكام، وما اختلفوا فيه.

وأخيراً أدعوا الله عزَّ وجلَّ أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة، وأن تكون اللبنة الأولى لتشييد بناءٍ علميٍّ يتناول جميع مناهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية.

الباحثة

مدخل

نشأة منهج علماء الكلام في تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية

نصت العديد من مصادر التراث الإسلامي على أن مشكلة الصفات الإلهية لم يكن لها حضور في عصر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ؛ كما نصت أيضاً على أنهم كانوا ينظرون إلى أسماء الله تعالى وصفاته الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية نظرةً واحدةً دون تقسيمٍ أو تفرقةٍ بين صفةٍ وأخرى ؛ يقول المقريزي: " من أمعن النظر فى دواوين الحديث النبوى، ووقف على الآثار السلفية، علم أنه لم يرد قط- من طريق صحيح ولا سقيم- عن أحد من الصحابة ﷺ - على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن شئ مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة فى القرآن وعلى لسان نبيه ﷺ، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام فى الصفات، نعم ولا فرَّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعز والعظمة وساقوا الكلام سوقاً واحداً".[1]

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى ٢ / ٣٥٦ دارصادر بيروت، ط بدون. وانظر: أعلام الموقعين عن رب العالمين.ابن قيم الجوزية تح/ طه عبد الرؤوف سعد ٤٩/١ دار الجيل بيروت ١٩٧٣م.

ومن هنا فقد أكد كثير من الباحثين المحدثين على أنه " لم يعرف عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين تقسيم الصفات الإلهية ولا الخوض في ذلك، وأن مسألة تقسيم الصفات الإلهية بصفة عامة كانت مسألة تابعة لظهور مشكلة الصفات في الفكر الإسلامي ".(١)

وهنا نجد الأسئلة الآتية تطرح نفسها علينا:

متى بدأ تقسيم الصفات الإلهية ؟ وما أول منهج اتُّبع في تقسيمها ؟ ومن أول من وضع هذا المنهج؟ وهل كانت هناك دوافع معينة لوضعه؟

إن المتتبع للنصوص المتعلقة بمشكلة الصفات في المؤلفات الكلامية الأولى التي وصلتنا يلاحظ أن أول مناهج علماء الكلام الإسلامي في تقسيم الصفات الإلهية هو تقسيمها إلى صفات ذات وصفات فعل (ذاتية وفعلية) ؛ ولكن تلك المصادر لا تعطينا إجاباتٍ صريحةً فيما يتعلق بالوقت الذي وُضع فيه هذا المنهج بالتحديد، كما أنها لا تنسب وضع هذا المنهج لشخصية معينة، ولا تشير إلى دوافع أو

---

(١) الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات للشمس السلفي الأفغاني ٢/ ٤٦٧ مكتبة الصديق الطائف، وانظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري عبد الله بن محمد الغنيمان ١/ ١٨ دار العاصمة للنشر والتوزيع ط/ ٢ ١٤٢٢ه ٢٠٠١م وانظر: دعوة التوحيد د/ محمد خليل هراس ١٧ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط/ ١ ـ١٤٠٦ه، ١٩٨٦م.وانظر: مقدمة د/ محمود قاسم لتحقيق كتاب مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد بعنوان (مقدمة في نقد مدارس علم الكلام.) ٣٦ مكتبة الأنجلو المصرية ط/ ٢ – ١٩٦٤م.

بواعث حدت إلى وضعه.

ولكن إذا نظرنا إلى أوائل المسائل التي أثيرت في مشكلة الصفات، والنصوص التي حفظها لنا التاريخ عن الشخصيات التي أثارتها في محاولة للتنقيب عن البذور الأولية التي أنبتت تقسيم الصفات الإلهية إلى صفات ذات وصفات فعل فإننا نجد أن أقرب المسائل لإنبات هذا المنهج هي مسألة(خلق القرآن) التي أثيرت على يد الجعد بن درهم - أول من نادى بالتعطيل وبمذهب نفي الصفات - فالقول بأن القرآن مخلوق يعني أنه فعل من أفعاله تعالى ؛ فالخلق فعل، وجهم بن صفوان وهو- كما نعلم - أول من أخذ عن الجعد القول بـ (خلق القرآن)[1] قد نص صراحة - في مقولة له حفظها لنا الأشعري ضمن مقالات الإسلاميين - على أن " القرآن جسم وهو فعل الله ".[2] وقد كان الجعد

---

(١) يقول د/ النشار: " تجمع المصادر على أنه - أي الجعد بن درهم - أول من نادى بالتعطيل وبمذهب نفي الصفات، وأن الجهم بن صفوان أخذ عنه كل هذا، ويذكر ابن كثير وابن نباتة أنه أول من قال بخلق القرآن من أمة محمد ﷺ"، " وتذكر المصادر التاريخية المتعددة أيضاً- فيما ينص الدكتور النشار - أن الجعد أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن، وأن هذا القول أوغر صدور الأمويين عليه فطلبوه فهرب من دمشق وذهب إلى الكوفة وعاش بها، فلقيه فيها الجهم بن صفوان، وأخذ هذا القول عنه " نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د/ علي سامي النشار ١/ ٣٣١ دار المعارف ط/ ٨

(٢) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري تح/ محمد محي الدين عبد الحميد٢/ ٢٦١ المكتبة العصرية صيدا بيروت

وجهم يعنيان بقولهما إن القرآن مخلوق، وإنه فعل الله أن القرآن (كلام الله) حادث وليس قديماً كالذات الإلهية ؛ وبذلك يكونا قد ميزا بين الذات الإلهية وفعلها من حيث قدم الذات وحدوث الفعل، وغرسا البذور التي أنبتت منهج المتكلمين في تقسيم الصفات الإلهية إلى صفات ذات وصفات فعل، والنظر إلى صفة باعتبارها صفة ذات قديمة، وإلى أخرى باعتبارها صفة فعل حادثة.

ولعل مما يؤكد ارتباط مسألة تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية بمسألة (خلق القرآن) أننا سنجد عند حديثنا عن ضوابط المتكلمين لتمييز صفات الذات وصفات الفعل أن أهم ما كانت تسعى إليه كل فرقة أثناء وضعها لضابطها في الفصل بين صفات الذات وصفات الفعل هو إيجاد ضابط يتوافق مع قولها في صفة (الكلام) ومسألة (خلق القرآن) ؛ فالمعتزلة دائماً كانت تحاول إيجاد الضابط الذي يجعل من (الكلام) صفة فعل ؛ بينما كان أهل السنة يذكرون من الضوابط ما يجعل من (الكلام) صفة من صفات الذات.

وبالإضافة إلى ذلك فإننا باعتماد الرأي المؤكد على صحة نسبة كتاب (الفقه الأكبر) أو بعض أجزاء منه للإمام أبي حنيفة[1] نستطيع

(١) ذكر ابن النديم في الفهرست أن أبا حنيفة له أربعة كتب في العقائد منها(الفقه الأكبر)، ولكن نسبة كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة موضع شك ؛ فلم يتفق العلماء على صحة نسبة هذا الكتاب إليه، وإن كان البزاري في المناقب نص على أن جماعة كثيرة من المشايخ =

التأكيد على أن تقسيم الصفات الإلهية والنظر إلى صفة باعتبارها صفة ذات، وإلى أخرى باعتبارها صفة فعل قد وضعت بذوره في تلك الفترة المبكرة ؛ فقد كان الإمام أبو حنيفة معاصراً لكل من الجهم بن صفوان وواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد(١) ؛ وقد اشتمل كتابه (الفقه الأكبر) على عبارة تحوي صراحة تقسيم الصفات الإلهية إلى صفاتٍ ذاتيةٍ وفعليةٍ ؛ يقول أبو حنيفة: " إن الله لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته الذاتية والفعلية ".(٢)

وقد أعطت عبارة أبي حنيفة هذه - باعتبارها أقدم عبارة وصلتنا مشتملة على تقسيم الصفات الإلهية عمومًا - الحق للدكتور النشار وغيره في القول بأن أبا حنيفة كان " أول من وضع فروقًا دقيقة بين صفات الله".(٣) وهي كذلك التي دفعت شمس الدين الأفغاني إلى القول

= تواطئوا على صحة نسبته إليه.انظر: الفهرست لابن النديم تح/ محمد عوني عبد الرؤوف، إيمان السعيدجلال ١/ ٢٠٢ الهيئة العامة لقصور الثقافة.وانظر: أبو حنيفة حياته وعصره آراؤه وفقهه محمد أبو زهرة ١٨٦ وما يليها دار الفكر العربي ط/ ٢.

(١) انظر: نشأة الفكر الفلسفي ١/ ١٣٥.

(٢) الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة النعمان مطبوع مع رسائل الإمام (العالم والمتعلم، الفقه الأبسط، الوصية) تح / محمد زاهد الكوثري ٥٨ المكتبة الأزهرية للتراث ط/ ١ - ١٤٢١ه / ٢٠٠١م.

(٣) نشأة الفكر الفلسفي ١/ ٢٣٦. وانظرمشكلة الذات الإلهية والصفات عند القاضي عبدالجبار المعتزلي د/ رابحة نعمان توفيق ٦١مطبوعات جامعة الكويت ط/ ١، ١٩٩٧م.

بأن: " أول من قسم الصفات إلى الذاتية والفعلية من أئمة الإسلام هو الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ثم تلاه آخرون".[1]

ولكننا لا نستطيع الجزم بهذه الاجتهادات، خاصة مع الشك في صحة نسبة كتاب الفقه الأكبر نفسه إلى أبي حنيفة، وضياع المؤلفات الكلامية الأولى ؛ بل إننا على العكس من هذه الآراء نرجح أن يكون هذا التقسيم من وضع المعتزلة الأول لا من وضع الامام ؛ لأن متقدمي السلف لم يكن من عادتهم - كما أخبرنا بذلك المؤرخون - الإسراف في الكلام في المطالب الإلهية، فقد كانوا لا يكادون يتجاوزون الكتاب والسنة في مبحث الصفات[2] وأبو حنيفة بصفة خاصة انصرف عن علم الكلام ولم يكن يقتحم مجاله أو يخوض مجادلة فيه إلا " عندما تضطره حاجة فكرية أو إحقاق حق إلى هذه المجادلة ".[3]

فالذي نرجحه هنا أن أبا حنيفة - إذا صحت نسبة هذا الكتاب أو هذه العبارة منه على وجه الخصوص - كان بعبارته معارضاً للون من التقسيم لصفات الله كان قد وضع بالفعل من قبل غيره لا مستحدثاً له ؛

(١) الماتريدية وموقفهم من توحيد الذات والصفات ٢ / ٤٦٨.

(٢)الملل والنحل الشهرستاني تح / محمد سيد كيلاني ١/ ٩٢ الدار الثقافية العربية ط/ بدون وانظر: مقدمة ابن خلدون ٨٣١طبعة دار الشعب وانظر: مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعطله لابن قيم الجوزية تح/ محمد عبد الرحمن حمزة ١/ ٢١ المطبعة السلفية القاهرة.

(٣) أبوحنيفة حياته وعصره آراؤه وفقهه ٢٨.

يعضد ذلك أنه حكم بقدم جميع صفاته تعالى صفات الذات وصفات الأفعال معارضاً القول بحدوث صفات الأفعال.

وعلى كلٍّ فقد كان تقسيم الصفات الإلهية إلى صفات ذاتية وفعلية هو أول المناهج التي ظهرت، كما أنه بالرُّغم مما أدى إليه تطور علم الكلام واتصاله بالفلسفة في المراحل التالية من تنوع وتعمق في تقسيم الصفات الإلهية متأثراً في ذلك بمناهج الفلسفة في تقسيمها - فقد ظل لهذا المنهج الأول حضوره ووجوده في جميع مراحل علم الكلام وأطواره، رغم مزاحمة المناهج الجديده له على الساحة الكلامية.

ولعل السِّر في ذلك يرجع إلى الأسباب التالية:

أولاً: ارتباط هذا التقسيم في المراحل الأولى - كما بينا - بأبرز مسألة دار حولها النزاع الكلامي بأسره وهي مسألة (خلق القرآن).

ثانيـاً: اشتداد النزاع الذي كان بين فرقتي أهل السنة (الأشاعرة والماتريدية) حول الصفات الفعلية وطريقة إثباتها لله عز وجل، فقد شغل هذا النزاع مساحات واسعة من الجدل بين فرقتي أهل السنة، وسجله البعض كأحد أهم الخلافات الكلامية الحقيقية بينهما كما سنفصل.

ثالثـاً: ارتباط هذا المنهج أيضـاً بمسألة(حلول الحوادث في ذات الله تعالى) - كما سنبين عند الحديث عن حكم المتكلمين بالقدم أو الحدوث على صفات الفعل - وتلك مسألة - كما نعلم - شغلت

مساحة واسعة من كتابات المتقدمين والمتأخرين من علماء الكلام على حدٍّ سواء.

* * *

الفصل الأول

الصفة الذاتية والصفة الفعلية عند علماء الكلام

(مصطلحات ومفاهيم)

المبحث الأول: الصفة الذاتية عند علماء الكلام (مصطلحات ومفاهيم)

المبحث الثاني: الصفة الفعلية عند علماء الكلام (مصطلحات ومفاهيم)

المبحث الثالث: الصفة الذاتية الفعلية عند علماء الكلام (مصطلحات ومفاهيم)

المبحث الأول

الصفة الذاتية عند علماء الكلام (مصطلحات ومفاهيم)

إذا حاولنا تصنيف الصفات الإلهية وبيان نوع كل صفة في منهج المتكلمين في تقسيمها إلى ذاتية وفعلية وجدنا أن المتكلمين قد ميزوا بين ثلاثة أنواع ؛ صفات ذاتية، صفات فعلية، صفات ذاتية فعلية.

فالصفة الذاتية عمومًا نسبة إلى الذات، وقد وضَّحت كتب الحدود الكلامية والمعاجم الفلسفية أن" ذات الشيء نفسه وعينه "[1]، " الذات نفس الشيء وجوهره"[2]، " الذات حقيقة الموجود ومقوماته "[3]، والذاتي "هو المنسوب إلى الذات، ويطلق على ما يقوم الموضوع ويلزمه اضطراراً، وهو جزء من الماهية ينحصر في الجنس والفصل، وكل خارج عن الماهية فهو عرضي".[4] يقول الآمدي " الذاتي عبارة

(١) الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة زكريا بن محمد الأنصاري تح / مازن المبارك ٧١ ط/ ١، دار الفكر المعاصر بيروت ١٤١١ ه ١٩٩١ م.

(٢) مفاتيح العلوم للخوارزمي، تح/ فان فلوتن، تعليق / محمد كمال الدين ١٨ ط/ ١مصر ١٣٤٩ه ١٩٣٠م. وانظر: المعجم الفلسفي مراد وهبة ٣٢١ دار قباء القاهرة ٢٠٠٧ م

(٣) المعجم الفلسفي صدر عن مجمع اللغة العربية بمصر إشراف د/ إبراهيم مدكور، مادة رقم ٤٧٣ ص٨٧.وانظر: الكليات لأبي البقاء الكفوي تح/ عدنان درويش ومحمدالمصري ٤٥٤ مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ط/ ٢ ١٤١٩ه، ١٩٩٨ م

(٤) المعجم الفلسفي د/ جميل صليبا ١/ ٥٨١ ط/ ١، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧١ م، وانظر: الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة ٧٠

عما يقال على شيء وهو سابق في الفهم على فهم ذلك الشيء المقول عليه من ضرورة فهمه ؛ كالحيوان والناطق بالنسبة للإنسان".[١] **ومن هنا يعرف البزدوي في كتابه أصول الدين الصفة الذاتية عمومًا بأنها:** "ما يستحيل وجود الذات بدونها ؛ كالتركيب للمركب صفة ذاتية لا يتصور وجود المركب بدونه ".[٢]

وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال في غاية الأهمية ألا وهو:

إذا كانت الصفة الذاتية بصفة عامة تعبر عن ماهية الشيء وجوهره وحقيقته، وماهية الله وحقيقة ذاته[٣]غير معلومة للخلق؛ فكيف خاض

---

(١) المبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين سيف الدين الآمدي تح/ حسن محمود الشافعي ٧٢ ط/ ٢مكتبة وهبة ١٤١٣ ه ١٩٩٣م

(٢) أصول الدين أبي اليسرالبزدوي، تح/ هانز بيترلنس، ضبط وتعليق أحمد حجازي السقا ٣٤ المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة ١٤٢٤ - ٢٠٠٣م.

(٣) لفظة ذات نفسها " أنكر قوم إطلاقها على الله تعالى وإضافتها إليه ؛ أما عدم إطلاقها فلأنها لفظة تأنيث، والباري سبحانه منزَّهٌ عن الأسماء والصفات المؤنثة، وأما عدم إضافتها فلأنها عين الشيء، والشيء لا يضاف إلى نفسه. وأجاز آخرون إطلاقها على الباري تعالى وإضافتها إليه، أما استعمالها فلوجهين:

أحدهما: أنها قد جاءت في الشعر القديم:

قال حبيب الصحابي عند صلبه:

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو موزع

وقال النابغة:

محبتهم ذات الإله ودينهم قديم فما يخشون غير العواقب =

المتكلمون في بيان أسمائه وصفاته تعالى الذاتية ؟

لقد طرح المتكلمون بأنفسهم هذا التساؤل، ونصت المصادر على وجود خلاف بشأنه بينهم ؛ فمن المتكلمين من ذهب إلى جواز تعقل ذاته تعالى ؛ ومن ثَمَّ جوَّز أن يكون له اسم بإزاء حقيقته المخصوصة، ومنهم من ذهب إلى امتناع تعقلها ومن ثَمَّ لم يُجوِّز ذلك، محتجاً بأن وضع الاسم لمعنى فرع تعقله ووسيلة إلى تفهيمه، فإذا لم يمكن أن يعقل ويفهم فلا يتصور اسم بإزائه.(1)

= **والوجه الثاني**: أنها لفظة اصطلاحية فجاز استعمالها لا على أنها مؤنث ذو؛ بل تستعمل ارتجالاً في مسماها الذي عبر عنه بها أرباب النظر الإلهي، كما استعملوا لفظ الجوهر والعرض وغيرهما في غير ما كان أهل العربية واللغة يستعملونهما فيه. **وأما منعهم إضافتها إليه تعالى وأنه لا يقال ذاته** لأن الشيءلا يضاف إلى نفسه فباطل بقولهم أخذته نفسه وأخذته عينه، فإنه بالاتفاق جائز وفيه إضافة الشيء إلى نفسه. موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي د/ سميح دغيم ١/ ٥٩٧ مكتبة لبنان ناشرون ط/ ١، ١٩٩٨ م. وانظر: بدائع الفوائد ابن القيم تح/ علي بن محمد العمان ٢/ ٤٠٠، دار عالم الفوائد.

(1) انظر: المطالب العالية من العلم الإلهي، فخر الدين الرازي تح/ أحمد حجازي السقا دار الكتاب العربي بيروت ٣/ ٢٣٩ ط/١، ١٤٠٧ه - ١٩٨٧م.وانظر لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات فخر الدين الرازي تصحيح السيد محمد بدر الدين٢١، ٢٢المطبعة المشرقية مصر ط/ ١، ١٣٢٣ه. وانظر: مطالع الأنظار على متن طوالع الأنوار أبي الثناء شمس الدين بن محمود الأصفهاني ١٥٥، ١٥٦ دار الكتبي.وانظر: شرح المقاصد سعد الدين التفتازاني تح / عبد الرحمن عميرة ٤/ ٢١٢ وما يليها، عالم الكتب بيروت ط/ ١، ١٤٠٩ ه ١٩٨٩م وانظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم محمد على التهانوي.تعريب عبد الله الخالدي. مراجعه/ رفيق العجم، تح/علي دحروج ١/ ١٨٣ =

وقد رجحت بعض المصادر الموقف الأول بناء على أن: " الخلاف في تعقل كنه ذاته، ووضع الاسم لا يتوقف عليه ؛ إذ يجوز أن يعقل ذاتاً ما بوجه ما ويوضع الاسم لخصوصية، ويقصد تفهيمها باعتبارٍ ما لا بكنهها، ويكون ذلك الوجه مصححاً للوضع وخارجاً عن مفهوم الاسم، كما في لفظ الله، فإنه اسم علم له موضوع لذاته من غير اعتبار معنى فيه ".(١)

ونحن هنا ننوه إلى أن المتكلمين في منهجهم لتقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية وفعلية لم يخوضوا في بحث صفات الله تعالى من حيث الكنه أو الماهية، بل كان بحثهم فقط محاولة للتمييز بين ما هو متعلق ذاته من صفاته سبحانه، وما هو متعلق فعله واختياره على أساس من معانى الصفات نفسها ودلالاتها، وسوف يتضح لنا ذلك من خلال عرض مفهوم الصفة الذاتية الإلهية عند علماء الكلام.

أولاً: مفهوم (الصفة الذاتية) عند المعتزلة:

(الصفة الذاتية) عند المعتزلة: " هى التى ترجع إلى الذات وتنسب إليها، وتكون الذات مستحقة لها استحقاقاً لازماً لا لمعنى سواها، ولا يصح خلو الذات منها، فهو لم يزل مستحقاً لها ولا يزال، ولا يجوز

= مكتبة لبنان ناشرون ط/ ١، ١٩٩٦م.

(١) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ١/ ١٨٣.

وصف الذات بضدها".[1]

وقد اختلف المعتزلة فيما بينهم في عدد الصفات الذاتية، كما اختلفوا مع أهل السنة في ذلك أيضـًا، ويلاحظ أن المعتزلة كانوا دائمـًا يميلون إلى الإقلال من عدد الصفات الذاتية ؛ فهي لم تزد على صفتي العلم والقدرة عند أبي علي وأبي هاشم، وقام أبو الحسين البصري باختزالها إلى صفة واحدة هي العالمية.[2]

وقد نص الشهرستاني على " أن واصل ابن عطاء كان ينفي صفات الباري تعالى من العلم والقدرة والإرادة والحياة وانتهى نظر أصحابه بعد مطالعة كتب الفلاسفة إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالمـًا قادراً ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان، هما اعتباران للذات القديمة كما قال الجبائي، أو حالان كما قال أبو هاشم، وميل أبي الحسن البصري إلى ردهما إلى صفة واحده هي العالمية".[3] ومن هنا يقول الدكتور أحمد محمود صبحي: " الصفات الإيجابية لفظـًا ومعنى والتي أثبتها المعتزلة من صفات الذات هي القدرة والحياة والعلم ".[4] وإن كان يمكننا

(١) مشكلة الذات الإلهية والصفات عند القاضي عبد الجبار المعتزلي: ٦٢ وما يليها.

(٢) المصدر السابق٧٢.

(٣) الملل والنحل ١/ ٤٦.

(٤) في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، الجزء الأول: المعتزلة د/ أحمد محمود صبحي دار النهضة العربية بيروت ط/ ٥، ١٤٠٥ه ١٩٨٥م. وانظر: الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة على عبد الفتاح المغربي ٢٢٢مكتبة وهبة =

القول بأن عموم المعتزلة اتفقوا على إثبات خمس صفات ذاتية وهي العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر.[١]

ثانيـًا: مفهوم (الصفة الذاتية) عند أهل السنة:

إذا تأملنا في نصوص أهل السنة نجد لمصطلح (الصفات الذاتية) أو (صفات الذات) استخدامين:

الاستخدام الأول: هو استخدامه كعلم على جميع الصفات المتعلقة بذاته تعالى في مقابلة الصفات المتعلقة بفعله ؛ فكل ماهو متعلق ذاته تعالى سواء استحقه سبحانه لذاته دون معنى زائد عليها، أو استحقه لمعنى – من وجهة نظرهم – أو الصفات السلبية أو الإضافية أو الخبرية المتعلقة بذاته، وغير ذلك مما ليس مستحقـًا له تعالى لفعله أو فعل غيره يندرج تحت الصفات الذاتية عند أهل السنة في هذا الاستخدام.

يقول صاحب (**إشارات المرام**): " الصفات الذاتية: أي المنسوبة إلى ذات الصانع المتعال، إما بالاتصاف بها من غير قيام معنى به كالصفات السلبية، مثل كونه واحداً مجرداً ليس في جهة ولا حيز، وكالإضافية مثل كونه الأول والآخر والقابض والباسط، أو بالاتصاف بها لقيام معنى به من الصفات الثبوتية كالعلم والقدرة والإرادة والكلام،

= ط/ ١، ١٤٠٧ه ١٩٨٦م.

(١) مشكلة الذات الإلهية والصفات عند القاضي عبد الجبار.٧٢

وما يرجع إليها أي إلى الصفات الذاتية مما تتصف ذات الصانع به من الصفات المتشابهات التي تعتقد مع التنزيه عن إرادة ما يوهم ظواهرها من الكيفيات كاليد والوجه والنفس والعين، ومما تتصف به ذات الصانع من كونه تعالى مرئيًا بأبصار عباده المكرمين في الجنات، مع التنزه عن إحاطة البصر والكيفيات، والكون في شيء من الجهات".[١]

ومن ثم نجد أن الباقلاني في الإنصاف والتمهيد قد نص على أن الصفات الذاتية هي جميع الصفات القديمة الواجبة لله تعالى ؛ يقول في التمهيد: " فإن قال قائل ففصلوا لي صفات ذاته من صفات أفعاله لأعرف ذلك: قيل له: صفات ذاته هي التي لم يزل ولا يزال موصوفًا بها كالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة والبقاء والوجه والعينين واليدين والغضب والرضى وهما الإرادة على ما وصفناه، وهي الرحمة والسخط والولاية والعداوة والحب والإيثار والمشيئة وإدراكه تعالى لكل جنس يدركه الخلق"[٢].

و**نجد البيهقي** في كتاب الاعتقاد على مذهب السلف يقول:

(١) إشارات المرام من عبارات الإمام كمال الدين أحمد البياضي الحنفي تح/ يوسف عبدالرزاق ١٠٧ مصطفى البابي الحلبي مصر ط/ ١ ١٣٦٨هـ ١٩٤٩م.

(٢) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للباقلاني تح / عماد الدين أحمد حيدر ٢٩٨، ٢٩٩ مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط/ ١، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.وانظر: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به الباقلاني تح/ محمد زاهدالكوثري٢٥المكتبة الأزهرية للتراث ط/ ٢، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م

"صفات ذاته ما يستحقه فيما لم يزل ولا يزال، وهو على قسمين ؛ أحدهما عقلي، والآخر سمعي ؛ فالعقلي ما كان طريق إثباته أدلة العقول مع ورود السمع به، وهو على قسمين ؛ أحدهما ما يدل خبر المخبر به عنه ووصف الواصف له به على ذاته ؛ كوصف الواصف له بأنه شيء ذات موجود قديم إلهٌ ملكٌ قدوسٌ جليلٌ عظيمٌ عزيزٌ متكبرٌ...والثاني ما يدل خبر المخبر به عنه ووصف الواصف له به على صفات زائدات على ذاته قائمات به ؛ وهو كوصف الواصف له بأنه حي عالم قادر مريد سميع بصير متكلم باقٍ فدلت هذه الأوصاف على صفات زائدة على ذاته قائمة به كحياته وعلمه وقدرته وإرادته وسمعه وبصره وكلامه وبقائه.... وأما السمعي فهو ما كان طريق إثباته الكتاب والسنة فقط كالوجه واليدين والعين، وهذه أيضـاً صفات قائمة بذاته لا يقال فيها إنها هي المسمى ولا غير المسمى، ولا يجوز تكييفها ؛ فالوجه له صفة، وليست بصورة، واليدان له صفتان وليستا الجارحتين، والعين له صفة وليست بحدقة وطريق إثباته له صفات ذات ورود خبر الصادق به".[1] وقد جرى تعريف ابن سابق الصقلي الأشعري للصفة الذاتية في كتابه (الحدود الكلامية والفقهية على رأي أهل السنة الأشعرية) على

---

(١) الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة، أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تح/ أبو الفضل عبد الله محمد الصديق ٢٢. دار العهد الجديد١٣٧٩، ١٩٥٩م.

هذا المنوال.(١)

كما عرَّف الشيخ عبد السلام المالكي في حاشيته على الجوهرة الصفة الذاتية قائلاً: " صفات الذات ما قام بها أو اشتق من معنى قائم بها كالعلم وعالم".(٢) فصفات الذات تشمل في هذا الاستخدام كل هذه الأقسام.

ولكن ينبغي هنا أن ننوه إلى أنه نظراً لاشتداد النزاع بين أهل السنة والمعتزلة حول ما استحقه سبحانه وتعالى من هذه الصفات الذاتية لمعنى زائد على ذاته – من وجهة نظر أهل السنه – والتي اشتهرت باسم (الصفات الثبوتية، صفات المعاني، الصفات الوجودية) دون غيرها مما أطلق عليه (صفات ذات) في هذا الاستخدام ؛ فإن مصطلح(صفات الذات) بالمفهوم السابق قد أصبح عند أهل السنة مصطلحًا يطلق على صفات (المعاني) بصفة خاصة ؛ يقول محمد بن محمد الأمير في حاشيته على شرح الشيخ عبد السلام المالكي لجوهرة التوحيد عند شرحه لمفهوم (صفات الذات): " أي المقصورة اصطلاحًا خاصًا على

---

(١) انظر: الحدود الكلامية والفقهية على رأي أهل السنة الأشعرية لأبي بكر محمد بن سابق الصقلي تح/ محمد الطبراني ١١٦ دار الغرب الإسلامي تونس.ط/ ١، ٢٠٠٨ م.

(٢) اتحاف المريد شرح الشيخ عبد السلام المالكي على جوهرة التوحيد للإمام اللقاني مطبوع معه حاشية لمحمد بن محمد الأمير على شرح عبد السلام ص ٩٣الطبعة الأخيرة ١٣٦٨ه ١٩٤٨م.مطبعة مصطفى الحلبي مصر.

المعاني".[1] ويقول الشيخ عبد السلام في شرح قول اللقاني: " كذا صفات ذاته": "أي القائمه بذاته تعالى وهي السبع السابقة ".[2] يقصد صفات المعاني السبع، وفي شرح البيجوري لمفهوم (صفات الذات) يقول أيضـًا: " هي صفات المعاني السبع أو الثمان على الخلاف في ذلك".[3] وقد نصت العديد من مصادر أهل السنة على هذا الاصطلاح فيما بينهم.[4]

ونلاحظ أن هذا الاصطلاح في إطلاق (صفة الذات) – بمفهومها المقابل لصفات الأفعال ـ على (صفات المعاني) بصفة خاصة قد بدأ منذ عصر أبي حنيفة ؛ ففي نص أبي حنيفة السابق الذكر نجده – كما لا حظ الدكتور النشارـ حدد الصفات الذاتية بسبع فقال: " أما الذاتية فالحياة والقدرة والعلم والكلام والسمع والبصر والإرادة ".[5] واقتصر

---

(١) حاشية محمد بن محمد الأمير على شرح عبد السلام لجوهرة التوحيد ٩٢.

(٢) اتحاف المريد ٩٧.

(٣) تحفة المريد على جوهرة التوحيد إبراهيم البيجوري ١٠٥.طبعة الإدارة المركزية للمعاهد الأزهرية مصر ١٤١٠ ه، ١٩٩٠م.

(٤) انظر: اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين الزبيدي ج٢/ ١٢٦.مؤسسة التاريخ العربي بيروت لبنان ١٤١٤ه ١٩٩٤م.وانظر ضوء المعالي لبدء الأمالي نور الدين علي بن سلطان محمد القاري تح/ أحمد هاشم رحيم ١٢٤رسالة مكمله لنيل العالمية في العقيدة من الجامعة الإسلامية ببغداد ١٤٢٨ه ٢٠٠٧م

(٥) الفقه الأكبر: ٥٨.

الأشعري و كثير من متكلمي أهل السنة عليها أيضاً دون غيرها من صفات الذات.[1]

ويمكننا إرجاع هذا الإطلاق لدى أهل السنة إلى سببين:

الأول: اشتداد النزاع حول هذا النوع من صفات الذات بين المعتزلة وأهل السنة أكثر من غيره كما ذكرنا.

الثاني: انطواء النزاع حول أنواع أخرى من الصفات الذاتية تحت مباحث أخرى في الكتب الكلامية ؛ كانطواء النزاع حول اليد والوجه وغيرها من صفات ذاتية تحت مبحث (الصفات الخبرية).[2]

الاستخدام الثاني: في نصوص أخرى لأهل السنة نجدهم يستخدمون مصطلح (الصفات الذاتية) أو(صفات الذات) للدلالة على ما يستحقه سبحانه وتعالى من الصفات لذاته دون معنى زائد، وذلك

(١) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع للإمام أبي الحسن الأشعري تح/ حمودة غرابة ٣٢ المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة والتاريخ /بدون.وانظر: بحر الكلام للنسفي تح: ولي الدين محمد صالح الفرفور ٩٠مكتبة دار الفرفورط/ ٢، ١٤٢١ه، ٢٠٠٠م.

(٢)وقد علل بعض أهل السنة بأنفسهم هذا الحصر للصفات الذاتية على هذه السبع كما في مذهب الأشعرية أوالثمان على مذهب الماتريدي، يقول الإمام حسن بن أبي بكر المقدسي " فصفات الذات ثمانية ولا ينتقص الحصر بكون عزة الله وجلاله وكبريائه من صفات الذات لأن مرادهم صفات الذات المفردة لا التي صارت صفة ذات بواسطة الإضافة " غاية المرام في شرح بحرالكلام للإمام حسن بن أبي بكر المقدسي تح/ عبد الله محمد عبد الله إسماعيل د/ محمد السيد أحمد شحاته ٣٤٠المكتبة الأزهرية للتراث ط/ ١ ١٤٣٢هـ ١٠١٢م.

كما في **استخدام الرازي له في لوامع البينات**؛ يقول: " صفات الله تعالى على ثلاثة أقسام: صفات ذاتية، وصفات معنوية وصفات فعلية، أما الصفات الذاتية فالمراد منها الألقاب الدالة على الذات كالموجود والشيء والقديم، وربما جعلوا الألفاظ الدالة على السلوب من هذا الباب؛ كقولنا واحد وغني وقدوس. وأما الصفات المعنوية فالمراد بها الألفاظ الدالة على معان قائمة بذات الله تعالى كقولنا عالم قادر حي، وأما الصفات الفعلية فالمراد بها الألفاظ الدالة على صدور أثر من الآثار عن قدرته تعالى".(1)

ومن نماذج هذا الاستخدام أيضاً ما جاء في **أصول الدين للبغدادي** المسألة الخامسة عشر من الأصل الثالث بعنوان: (في بيان أوصاف الصانع في ذاته) فقد أورد تحت هذه المسألة الأوصاف التي يستحقها سبحانه لا لمعنى زائد على ذاته بل لنفسه، وبعض الاختلافات فيها.(2)

وقبل أن نغادر إلى الحديث عن صفة الفعل ينبغي الإشارة إلى أن المتتبع لنصوص المتكلمين المتعلقة ببحث مسألة الصفات يلاحظ بوضوح وجود مصطلح آخر يستخدمه المتكلمون للدلالة على جميع ما دل عليه مصطلح (صفة الذات) سواء عند المعتزلة أو عند أهل السنة

(1) لوامع البينات ٢٤.

(2) انظر: أصول الدين للبغدادي ٨٨، ٨٩. دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠١ه، ١٩٨١م وانظر الفرق بين الفرق البغدادي تح/ محمد بدر ٣٢٧ مطبعة المعارف

؛ **ألا وهو مصطلح (صفة النفس) أو(الصفة النفسية)** ؛ فقد استخدم علماء الكلام مصطلح (الصفة النفسية) أو(صفة النفس) كبديل عن مصطلح (الصفة ذاتية) وكان اصطلاحـًا متداولاً بين كثير من المتكلمين ؛ فنجد **القاضي عبد الجبار** يبادل في حديثه عن الصفات الذاتية عند المعتزلة بين مصطلحي (الذات) و(النفس) ؛ يقول عند حديثه عن صفة العلم: " وأما الذي يدل على أنه جل وعز يكون عالمـًا فيما لا يزال هو أنه يستحق هذه الصفة لذاته، والموصوف بصفة من صفات الذات لا يصح خروجه عنها بحال من الأحوال."(١) وفي حديثه عن صفة القدرة: " وأما الذي يدل على أنه تعالى يكون قادراً فيما لا يزال فهو أنه يستحق هذه الصفة لنفسه، والموصوف بصفة من صفات النفس لا يجوز خروجه عنها بحال من الأحوال".(٢) فالملاحظ هنا أنه استبدل مصطلح (صفة النفس) بمصطلح (صفة الذات) وكلتا الصفتين(العلم والقدرة) من الصفات الذاتية بإجماع المعتزلة.

وقد ورد أيضـًا استخدام مصطلح (صفة النفس) كبديل لمصطلح (صفة الذات) في جميع استخداماته التي وضحناها عند أهل السنة ؛ فقد استخدمه الإمام الأشعري بكثرة في مقالات الإسلاميين معبراً به عن

(١) شرح الأصول الخمسة لقاضي القضاه عبد الجبار بن أحمد تح/ عبد الكريم عثمان١٦٠ مكتبة وهبة ط/ ٢ ١٤٠٨ه، ١٩٨٨م.

(٢) المصدر السابق ١٥٥.

الصفات المقابلة لصفات الفعل كما في الاستخدم الأول لمصطلح (الصفة الذاتية) عند أهل السنة؛ فعند تعرض الأشعري لمقالات المعتزلة مثلاً يقول: " واختلفوا في معنى القول إن الله جواد ؛ وهل الوصف له بذلك من صفات **النفس** أو من صفات الفعل".(١) وفي حديثه عن الجبائي يقول: " كان يفرق بين صفات النفس وصفات الفعل بما حكيناه عن المعتزلة قبل هذا الموضع ".(٢)

وأما بالنسبة لاستخدامه كعلم على صفات المعاني بصفة خاصة ؛ نجد الآمدي في كتابيه (غاية المرام) و(أبكار الأفكار) يعنون بعنوان: (في إثبات الصفات النفسانية) ويقول تحته: " مذهب أهل الحق من الأشاعرة أن الواجب بذاته قادرٌ بقدرةٍ مريدٌ بإرادةٍ عالمٌ بعلمٍ متكلمٌ بكلامٍ سميعٌ بسمعٍ بصيرٌ ببصرٍ حيٌ بحياةٍ وهذه كلها صفات وجودية أزلية زائدة على ذاتِ واجبِ الوجود".(٣) فقد قصر الحديث تحت هذا

---

(١) مقالات الإسلاميين ١/ ٢٦٠.

(٢) مقالات الإسلاميين ٢/ ٢٠٧ وانظر: المرجع نفسه ١/ ٢٤٥، ١/ ٢٤٨، ١/ ١.٢٥٧/ ٢٦٣، ١/ ٢٧٣. ٢/ ١٧٧. ٢/ ١٨٢. ٢/ ١٩٢ .وانظرأبكارالأفكار سيف الدين الآمدي، تح/ أحمد محمدالمهدي ٢/ ٥١٨ يقول: "الأسماء منها ما هي صفات نفسانية كالعلم والقدرة ومنها ما هي صفات فعلية كالخالق والرازق ومنها ماهي صفات سلبية كالغني" دار الكتب العامة والوثائق القومية القاهرةط/ ٣، ١٤٢٨ه، ٢٠٠٧م.

(٣) أبكار الأفكار ١/ ٢٦٥. وانظر: المصدرنفسه: ٢/ ٥١٨ و غاية المرام في علم الكلام الآمدي تح/ حسن محمود عبد اللطيف ٢٧ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٣٩١ هـ ١٩٧١م..

العنوان على صفات المعاني.

كما أن الأشعري في عرضه مثلاً لقول الزيدية في الصفات ذكر أنهم فرقتان ثم بين أن الفرقة الأولى تقول: " البارئ عالم بعلم لا هو هو ولا غيره...قادر بقدرة لا هي هو ولا غيره...وكذلك قولهم في سائر صفات النفس كالحياة والسمع والبصر "[1]، ثم يقول في عرض مقولة الفرقة الثانية منهم: " يزعمون أن البارئ عز وجل عالم قادر سميع بصير بغير علم وحياة وقدرة وسمع وبصر وكذلك قولهم في سائر صفات الذات"[2]، فالملاحظ على نصي الأشعري استبدال مصطلح (صفات الذات) بمصطلح (صفات النفس) مع الاقتصار على ذكر صفات المعاني.

وأخيراً فقد ورد مصطلح (الصفة النفسية) بالمفهوم الثاني الذي ورد به مصطلح (الصفة الذاتية) عند أهل السنة، أي دالاً على الصفات التي يستحقها سبحانه وتعالى لذاته دون معنى زائد عليها، يقول البيجوري: " المراد بالصفة النفسية صفة يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد عليها ".[3]

ويمكننا أن نقرر أن استخدام مصطلح (الصفة النفسية) هو الأكثر

---

(١) مقالات الإسلاميين ١/ ١٤٦.

(٢) المصدر السابق ١/ ١٤٧.

(٣) تحفة المريد ٦٧.

شيوعـًا في هذا المعنى في كتابات أهل السنة وخاصة المتأخرين منهم، ومن نماذجه استخدامه في الإرشاد: " اعلم أن صفاته تعالى منها **نفسية** ومنها معنوية ؛ وحقيقة صفة النفس كل صفة إثبات لنفس لازمة ما بقيت النفس غير معللة بعلة قائمة بالموصوف، والصفات المعنوية هي الأحكام الثابتة للموصوف بها معللة بعلل قائمة بالموصوف"(١).

ومما لا شك فيه أن التطابق اللغوي بين مصطلحي الذات والنفس – كما بينا- كان وراء هذا الترادف بين مصطلحي الذاتية والنفسية في استخدامات المتكلمين.

***

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لإمام الحرمين عبد الملك الجويني علق عليه وخرج آياته وأحاديثه زكريا عميرات ١٧ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط/١، ١٤١٦ه ١٩٩٥م و انظر هذا الاستخدام أصول الدين للبغدادي ٨٩، ١٢٢.. وانظر: الفرق بين الفرق ٣٢٧. تمهيد الأوائل ٢٦٣.

المبحث الثاني:

الصفة الفعلية عند علماء الكلام (مصطلحات ومفاهيم)

الصفات الفعلية نسبة إلى الفعل ؛ والفعل بصفة عامة كما في لسان العرب: " كل عمل متعدٍّ أَو غير متعدٍّ "(١).

ومن ثَمَّ فإن الصفات الفعلية الإلهية تشمل:

- **ما هو مشتق من الأفعال الإلهية اللازمة**: أي التي لا تعلق لها بغير الذات الإلهية ؛ مثل الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين العباد يوم القيامة ونحو ذلك مما نص عليه القرآن الكريم والسنة النبوية.

- **ما هو مشتق من الأفعال الإلهية المتعدية**: أي التي يتعدى تأثيرها أو تعلقها إلى غير الذات الإلهية من المخلوقات، أو التي تعبر عن نوع علاقة وارتباط بين الله تعالى ومخلوقاته، سواء أكانت تلك الأفعال متعلقة بأمور الدنيا من خلق العالم وإخراج جميع الأشياء من العدم إلى الوجود ورزق الأحياء وإماتتهم وإرسال الرسل، أم متعلقة بأمور الآخرة

(١) انظر اللسان مادة فعل – وننبه هنا إلى أن الصفة الإضافية تتداخل مع الفعلية. لأن كل صفة فعلية من مادة متعدية إلى المفعول كالخلق والإحياء والإماتة فهي صفة إضافية، وليست كل صفة إضافية فعلية، فبينهما عموم وخصوص من وجه، يجتمعان في نحو الخلق والإحياء والإماتة، وتنفرد الفعلية في نحو الاستواء، وتنفرد الإضافية في نحو كونه تعالى موجوداً قبل كل شيء، وأنه فوق كل شيء، لأن القبلية والفوقية من الصفات الإضافية وليستا من صفات الأفعال.

كالبعث والحساب.

يقول ابن تيمية في كتابه (الأسماء والصفات): " الأفعال - أي الإلهية - نوعان متعدٍ ولازمٌ ؛ فالمتعدي مثل الخلق والإعطاء ونحو ذلك، واللازم مثل الاستواء والنزول والمجئ والإتيان ؛ قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (السجدة: ٤) فذكر الفعلين المتعدي واللازم ".[١]

ونلاحظ أن كلا النوعين مشتق له سبحانه وتعالى من فعله هو، وهناك نوع ثالث من صفات الأفعال غير مشتق له سبحانه من فعله ؛ بل من فعل غيره ؛ يقول البغدادي: " وجملة أسمائه قسمان مشتق وغير مشتق، فالمشتق منها نوعان..أحدهما مشتق من صفة له قائمة به... والثاني مشتق له من فعل...وذلك نوعان أحدهما مشتق من فعله كالخالق والرزاق والمنعم ونحو ذلك، والثاني مشتق له من فعل غيره كمعبود ومشكور ونحو ذلك "[٢].

ويقول الأشعري في بيانه لمذهب المعتزلة في صفات الأفعال: " وكل اسم اشتق للبارئ من فعله كالقول متفضل منعم محسن خالق رازق عادل جواد وما أشبه ذلك فهو من صفات الفعل، وكذلك كل اسم

(١) الأسماء والصفات ابن تيمية تح/ محمد السيد ٢/ ١٣٧.دار الدعوة الإسلامية ط/١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

(٢) أصول الدين البغدادي ١١٧، ١١٨. وانظر: إشارات المرام ١١٥.

اشتق للبارئ من فعل غيره كالقول معبود من العبادة، وكالقول مدعو من دعاء غيره إياه فليس من صفات الذات، وكل ما جاز أن يرغب إلى البارئ فيه ليس من صفات الذات ".[1] وعلى ذلك يمكننا أن نقرر أن الصفات الفعلية الإلهية ثلاثة أقسام.

ولكن ينبغي أن ننبه هنا إلى أن مصطلح (صفات الأفعال) بالرغم من اندراج الأقسام الثلاثة تحته إلا أنه يطلق في غالب نصوص المتكلمين على النوع الثاني فقط ؛ أي ما هو مشتق من الأفعال الإلهية المتعدية ؛ حتى أننا نلاحظ أن تعريفات علماء الكلام لصفات الفعل وتمثيلاتهم لها تنطبق في الغالب على هذا النوع فقط.

ففي تعريفها يقول الرازي في لوامع البينات: "وأما الصفات الفعلية فالمراد بها الألفاظ الدالة على صدور أثر من الآثار عن قدرة الله تعالى".[2]

وجاء في إشارات المرام: " الصفات الفعلية: أي التي هي منشأ الأفعال، ومبدأ لإخراج المعدوم من العدم إلى الوجود، الراجعة إلى التكوين العام وما يرجع إليها من أفعاله المتعلقة بأمر الدنيا ؛ كخلق الأعمال وتدبير نظام العالم بإرسال الأنبياء ونصب الإمام، والمتعلقة بأمر الآخرة كالإعادة والإثابة والمعاقبة وسائر السمعيات الراجعة إلى

(١) مقالات الإسلاميين ٢/ ١٩٥.

(٢) لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات ٢٤

التكوين المخصوص".[1]

- ويقول **الشيخ عبد السلام المالكي** "صفة الفعل ما اشتق من معنى خارج عنها - أي من معنى خارج عن الذات - كخالق و رازق فإنهما من الخلق والرزق".[2] **ويقول البيهقي** في تعريف الصفة الفعلية: " أما صفات فعله فهي تسميات مشتقه من أفعاله... وهو كوصف الواصف له بأنه خالق رازق محي مميت منعم متفضل".[3] **ويقول صاحب المسامرة:** " صفات الأفعال التي يدل عليها نحو قوله تعالى: ﴿ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ ونحو الرزاق والمحي والمميت، **والمراد بها** صفات تدل على تأثير".[4] ويقول **(ملا علي القاري)** في شرحه للفقه الأكبر: " الصفات الفعلية وهي التي يتوقف ظهورها على وجود الخلق".[5]

(١) إشارات المرام ٢١٢.

(٢) اتحاف المريد ص ٩٣.

(٣) الاعتقاد على مذهب السلف ٢٢.

(٤) كتاب المسامرة في شرح المسايرة للكمال بن أبي شريف بن الهمام وشرحه الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي مع حاشية زين الدين قاسم على المسايرة ١/ ٨٩، ٩٠ المكتبة الأزهرية للتراث. ط/ ٢ ١٣٤٧ه.وانظر: اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ٢/ ١٥٩.

(٥) منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر علي بن سلطان محمد القاري ٨٢. مطبوع معه التعليق الميسر على شرح الفقه الأكبر وهبي سليمان غاوجي ط/ ١، ١٤١٩ـ ١٩٩٨م دار البشائر الإسلامية بيروت.

فالملاحظ على كل هذه التعريفات لصفات الفعل أنها منصبة كلية على النوع الثاني من الأنواع التي ذكرناها لصفات الأفعال.

كذلك فإن أغلب أمثلة المتكلمين لصفات الأفعال تركز على ذكر أفعال من هذا النوع أيضاً ؛ فالبغدادي في أصول الدين يعقد فصلاً بعنوان: " في بيان ما دل من أسمائه على أفعاله ويمثل له بأسماء " كالبر في الدلالة على بره بعباده، والباري في الدلالة على أنه خالق الخلق، والباسط في الدلالة على بسط الرزق لمن شاء وعلى أنه بسط الأرض...والباعث من أسمائه دليل على بعثه الرسل...".[1]

وفي التمهيد للباقلاني: " وصفات فعله هي الخلق والرزق والعدل وكل صفة كان موجوداً قبل فعله لها ".[2]

ولعل ذلك التركيز على هذا النوع دون غيره من صفات الفعل يرجع إلى سببين: الأول: اشتداد النزاع بين فرقتي أهل السنة(الأشاعرة والماتريدية) على هذا النوع الثاني أكثر من غيره.

الثاني: اندراج الحديث عن النوع الأول (الأفعال الإلهية اللازمة كالاستواء والنزول) تحت مبحث الصفات الخبرية.

هذا وقد اختلفت الفرق الكلامية في حقيقة هذا النوع من صفات الفعل اختلافاً كبيراً ؛ وكانت لهم فيها آراء نعرضها على النحو التالي:

(١) أصول الدين للبغدادي ١٢٤.

(٢) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ٢٩٩.

(أ) **الماتريدية:** كان لهم فيها رأيان:

- **الرأي الأول**: وهو رأي المحققين من الماتريدية أن صفات الأفعال " التخليق والترزيق والتصوير والإحياء والإماتة وغير ذلك مما أسند إلى الله تعالى كل منها راجع إلى صفة حقيقية أزلية قائمة بالذات هي التكوين ".[1]

ويعرف **النسفي صفة التكوين هذه** بأنها: " صفة لله تعالى أزلية قائمة بذاته كالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر، وهو تكوين العالم ولكل جزء من أجزائه لوقت وجوده ".[2] فالتكوين عندهم صفة ذاتية " تغاير القدرة فإن متعلق القدرة قد لا يوجد أصلاً بخلاف متعلق التكوين،

(١) شرح العقائد النسفية سعد الدين التفتازاني تح/ أحمد حجازي السقا ٤١ مكتبة الكليات الأزهرية ط/ ١ ١٤٠٧ه - ١٩٨٧م.وانظر التمهيد لقواعد التوحيد أبي المعين النسفي تح/ محمد عبدالرحمن الشاغول: ٥٠، المكتبة الأزهرية للتراث. وانظر: المسامرة ١/ ٨٩، إشارات المرام ٢١٣، تبصرة الأدلة في أصول الدين أبي المعين ميمون بن محمدالنسفي تح/ كلود سلامة ١/ ٣٠٦ المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ط/ ١ ١٩٩٠م وانظر إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ٢/ ١٥٨. " وتنص المصادر على إيثارهم لفظة (التكوين) كعلم على هذه الصفات جميعها لأظهريتها في ذلك وشيوع استعمال الخلق بمعنى المخلوق وتوافق أئمتهم المتقدمين على هذه اللفظة.

(٢) التمهيد لقواعد التوحيد: ٥٠، وانظر شرح العمدة في عقيدة أهل السنة والجماعة المسمى بالاعتماد في الاعتقاد أبي البركات النسفي تح/ عبد الله محمد عبد الله ١٩٥ المكتبة الأزهرية للتراث ط/ ١، ١٤٣٢هـ٢٠١٢م.

والقدرة متعلقة بإمكان الشيء، والتكوين بوجوده".[1]

فالتكوين على ذلك أخص من القدرة ؛ لأن القدرة متساوية بالنسبة إلى جميع المقدورات، وصفة التكوين خاصة بما يدخل من هذه الأشياء في الوجود.[2]

ف " تلك الصفات - على مذهبهم - لها أسماء غير اسم القدرة ؛ تسميتها بها باعتبار أسماء آثارها... فإن كان ذلك الأثر مخلوقاً فالاسم الذي يدل على تلك الصفة الخالق والصفة الخلق، أو كان ذلك الأثر رزقاً فالاسم الذي يدل على تلك الصفة الرازق أو الرزاق والصفة الترزيق، أو كان ذلك الأثر حياة فهو أي الاسم الذي يدل على تلك الصفة المحي والصفة الإحياء، أو كان ذلك الأثر موتاً فهو أي الاسم الدال على الصفة المميت والصفة الإماتة.."[3]

هذا وننوه هنا إلى أن إثبات صفة التكوين صفة ذاتية مغايرة للصفات السبع مما انفرد به الفكر الماتريدي، وأن مصادر كلامية تنص على أنهم إنما استنبطوا هذه الصفة (التكوين) من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا

(١) طوالع الأنوار من مطالع الأنظار للقاضي ناصر الدين البيضاوي تح/ عباس سليمان ١٩١ دار الجيل بيروت المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة ط/ ١، ١٤١١ه ١٩٩١م.

(٢) انظر: أبو منصور الماتريدي حياته وآراؤه العقدية بلقاسم الغالي ٧٣ دار التركي للنشر ١٩٨٩.

(٣) المسامرة ١/ ٨٩، ٩٠.وانظر: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ٢/ ١٥٩. وانظر: غاية المرام في شرح بحر الكلام ٣٥٥، ٣٥٦.

قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(النحل: ٤٠) ؛ حيث قالوا إنه تعالى " جعل قوله كن مقدماً على الكون وهو المسمى بالأمر، والكلمة والتكوين والاختراع والإيجاد والخلق ألفاظ تشترك في معنى وتتباين بمعانٍ ؛ والمشترك فيه كون الشيء موجداً من العدم ما لم يكن موجوداً ".(١)

- **الرأي الثاني**: وهو رأي نسبته المصادر الكلامية لبعض علماء ما وراء النهر وفحواه أن كل صفة من صفات الأفعال صفة حقيقية أزلية.(٢) يقول الإمام حسن ابن أبي بكر المقديسي في شرح بحر الكلام: " واعلم أن كونها- أي صفات الأفعال - صفات حقيقية مما تفرد به علماء ما وراء النهر".(٣)

(ب) الأشاعرة:

تنص العديد من المصادر الكلامية على أن الأشاعرة عارضوا وجهات نظر الماتريدية في صفات الأفعال ؛ فلم ينظروا إليها باعتبارها صفة أو صفات حقيقية مستقلة مغايرة لصفات الذات ؛ وإنما نظروا إليها

(١) نقض المحصل للطوسي ١٨٧ مطبوع بهامش محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين فخر الدين الرازي راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف سعد مكتبة الكليات الأزهرية

(٢) انظر المسامرة ١/ ٩٠، إشارات المرام ٢١٣.، غاية المرام في شرح بحر الكلام ٣٥٥.

(٣) غاية المرام في شرح بحر الكلام ٣٥٥

باعتبارها تعلقات القدرة والإرادة التنجيزية الحادثة.(١)

يقول ابن الهمام في بيان مذهب الأشاعرة: "والأشاعرة يقولون ليست صفة التكوين على فصولها أي تفاصيلها سوى صفة القدرة باعتبار تعلقها بمتعلق خاص؛ فالتخليق هو القدرة باعتبار تعلقها بالمخلوق، والترزيق تعلقها بإيصال الرزق ".(٢)

" وقالوا في بيان مذهبهم إن الله لم يوصف بالخالقية قبل الخلق، والرازقية قبل الرزق، وكذا الكلام في بقية صفات الفعل عندهم بناءً منهم على أن الفعل عين المفعول ؛ إذ لا يتصور بدونه، كما لا يتصور الضرب بدون المضروب، وليس المراد بقولهم عينه أن مفهومَه مفهومُه ليلزم المحالات ؛ بل أرادوا أن الفاعل إذا فعل فعلاً فليس هناك إلا الفاعل والمفعول، وأما المعنى الذي يعبر عنه بالفعل كالتكوين والتخليق والترزيق فهو أمر اعتباري يحصل في العقل من نسبة الفاعل

---

(١) انظر إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ٢/ ١٥٨وما يليها، وانظر: الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات ١/ ٤٥٨ وانظر شرح المقاصد٤/ ١٦٨ وما يليها.وانظر دعوة التوحيد ١٦.

(٢) المسامرة ١/ ٩١. وقد اعترض شارحه على هذا التفسير لمذهب الأشاعرة موضحاً أن " قول الأشاعرة إن التخليق نفس التعلق لا القدرة باعتبار التعلق. ويحتج الشارح هنا فيقول: " قال في شرح العقائد الإيجاد أمر اعتباري يحصل في الفعل من نسبة الفاعل إلى المفعول، وقال فيه أيضاً إن تعلق القدرة على وفق الإرادة بوجود المقدور لوقت وجوده إذا نسب إلى القادر يسمى الخلق، وهذا ظاهر في أنه نفس التعلق لا القدرة باعتبار تعلقها.

إلى المفعول وليس أمراً محققاً مغايراً للمفعول في الخارج ؛ فالماهية مثلاً لو كانت فكونها وجودها لكنهما متغايران في العقل ؛ بمعنى أن العقل يلاحظ الماهية دون الوجود وبالعكس".(١)

يقول **الرازي في لوامع البينات:** " وأما الصفات الفعلية فليست عبارة عن حالة ثابتة لذات الله تعالى، ولا معنى قائم بذات الله تعالى ؛ بل هي عبارة عن مجرد صدور الآثار عنه، ولا معنى للخالق إلا أنه وجد المخلوق منه بقدرته، ولا معنى للرازق إلا أنه وصل الرزق منه إلى العبد بسبب إيصاله ".(٢)

ويقول **سعد الدين التفتازاني** مبينا معنى الإيجاد على مذهبه: " معنى يعقل من إضافة المؤثر إلى الأثر، فلا يكون إلا فيما لا يزال، ولا يفتقر إلا إلى صفة القدرة والإرادة ".(٣)

وقد قال الأشاعرة في ردهم على مقولة الماتريدية بأن متعلق القدرة قد لا يوجد أصلاً بخلاف متعلق التكوين، وأن القدرة متعلقة بإمكان الشيء والتكوين بوجوده بأن" الإمكان بالذات فلا يكون بالغير، والتكوين هو التعلق الحالي، ولذلك يترتب عليه الوجود ".(٤)

---

(١) غاية المرام شرح بحر الكلام٣٥٣، ٣٥٤

(٢) لوامع البينات ٢٥.

(٣) شرح المقاصد ٤/ ١٧٠

(٤) طوالع الأنوارمن مطالع الأنظار ١٩١.وانظر: مطالع الأنظار على متن طوالع الأنوار ١٨٤، ١٨٥ وانظر: غاية المرام شرح بحر الكلام٣٥٤ ومايليها.

(ج)المعتزلة:

للمعتزلة في صفات الأفعال موقف مشابه لموقف الأشاعرة ؛ حيث قال أكثرهم – فيما ينقل البزدوي ـ ليس لله هذه الصفات كما ليس له سائر الصفات، وقالوا الإيجاد والموجود واحد وكذا الرحمة والمرحوم واحد ".[1]

يقول الأشعري: " كان أبو الهذيل يقول إن الخلق الذي هو إرادة وقول لا يقال إنه مخلوق إلا على المجاز، وخلق الله سبحانه للشيء مؤلفاً الذي هو تأليف، وخلقه للشيء ملوناً الذي هو لون، وخلقه للشيء طويلاً الذي هو طول مخلوق في الحقيقة ".[2]

وقبل أن نغادر الحديث عن الصفات الفعلية ننوه إلى أن المتكلمين قد استخدموا مصطلحات أخرى للدلالة عليها ؛ فنجد الآمدي يستخدم مصطلح (خارجية) للدلالة على الصفات الفعلية ؛ يقول الآمدي: " قال النفاة: لو قدر له صفات فهي إما ذاتية أو خارجية ".[3] كما استخدم بعض المتكلمين مصطلح (الصفات الاختيارية)؛ فقد عقد ابن تيمية في كتابه (الأسماء والصفات) فصلاً بعنوان (في الصفات الاختيارية) وأدرج

(١) أصول الدين للبزدوي ٧٦.

(٢) مقالات الإسلاميين ٢/ ١٩٦.وانظر: تاريخ الفلسفة في الإسلام دي بور ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ١٠٧ مكتبة النهضة المصرية ط/ ٥.

(٣) غاية المرام: ٣٨.

تحته الكثير من الصفات الفعلية مثل خلقه تعالى وعدله واستوائه ونزوله ورحمته وإرادته، وعرف هذه (الصفات الاختيارية) بأنها: "الأمور التي يتصف بها الرب عز وجل فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته مثل كلامه وسمعه وبصره و إرادته...".(١)

* * *

(١) الأسماء والصفات ٢/ ١٢٨.

المبحث الثالث:

الصفة الذاتية الفعلية عند علماء الكلام (مصطلحات ومفاهيم)

لا نقصد بالصفات الذاتية الفعلية تلك الصفات التي اختلف عليها المتكلمون فقال بعضهم بذاتيتها وقال آخرون بفعليتها ؛ وإنما نقصد بالصفات الذاتية الفعلية نوعين:

الأول: صفاتٌ رأى المتكلمون أنها قد تكون صفات ذات باعتبار، وقد تكون صفات فعل باعتبار آخر.

الثاني: صفاتٌ رأى بعض المتكلمين أن جنس الصفة نفسها يعتبر صفة ذات، وآحادها يعتبر صفة فعل.

وفيما يلي تفصيل لكلا النوعين ونماذج له:

النوع الأول: هناك من صفات الله تعالى ما نص المتكلمون على أنه يحتمل أن يكون صفة ذاتية، ويحتمل أن يكون صفة فعلية أيضاً، وهذا النوع من الصفات يلاحظ وجوده بوضوح عند كل من المعتزلة وأهل السنة ؛ **فقد نقل الأشعري في مقالات الإسلاميين عن البصريين من المعتزلة:** " وزعموا أن الصفات على وجوه ؛ فمنها ما يوصف به البارئ لنفسه كالقول عالم قادر حي سميع بصير، وشيء يوصف به لفعله ؛ كالقول خالق رازق محسن منعم متفضل عادل جواد حكيم متكلم صادق آمر ناه مادح ذام محي مميت ممرض مصح وما أشبه ذلك، **وشيء يوصف به البارئ لذاته وقد يوصف به لفعله** ؛ كالقول حكيم

بمعنى عليم من صفات النفس، والقول حكيم على طريق الاشتقاق من فعله الحكمة من صفات الفعل. وكالقول صمد بمعنى سيد يوصف به لذاته، وقد يوصف به بمعنى أنه مصمود إليه في النوائب ؛ فيوصف به من طريق الاشتقاق من الفعل ".[١]

ويُعَنْوِن البغدادي في أصول الدين لمسألة بعنوان:)فيما دل من أسمائه على معنيين) ويقول تحته: " هذا النوع من أسمائه كثير منها البديع فإنه يكون بمعنى المبدع للشيء، ومنه قوله عز وجل﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما، وعلى هذا الوجه يكون هذا الاسم مشتقـًا من فعله، وقد يكون البديع بمعنى الأول يقال منه بدع وبديع ومنه قوله ﴿ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أي ما كنت أولهم، ويكون البديع الذي لا يكون له مثل، وعلى هذين الوجهين يكون البديع من أسمائه الأزلية، ومنها الظاهر والباطن إن حملناهما على معنى أنه العالم بظواهر الأمور وبواطنها كانا من أوصافه الأزلية، وإن حملناهما على معنى قوله وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة كانا مشتقين من فعله، ومنها الجبار إن تأولناه على معنى القهر لأعدائه أو على معنى جبره للكسير كان مشتقـًا من فعله، وإن تأولناه على معنى (الذي لا تناله الأيدي) من لا ينال، كقولهم نخلة جبارة إذا لم تنلها الأيدي كان من صفاته الأزلية..."[٢]

---

(١) مقالات الإسلاميين ٢/ ١٩٢.

(٢) أصول الدين للبغدادي ١٢٦، ١٢٧. وانظر: الفرق بين الفرق ٣٢٧ وانظر: أصول الدين =

وقد ذكر البغدادي العديد من النماذج الأخرى لهذا النوع.

ولعلنا نلاحظ أن هذا النوع من الصفات يعود في احتماليته لكونه صفة ذات أو صفة فعل إلى تعدد في أصل الاشتقاق، وتعدد في المعاني التي تحتملها الصفة، وهل هي مشتقه من متعلق الذات أم من فعل الذات.

ونفصل هنا القول في نموذج لهذا النوع وليكن (صفة الحكمة): لقد نص علماء الكلام على أن أهل اللغة قد ذكروا لصفة الحكمة عمومـاً أكثر من معنى، ويشيرون في هذا المقام إلى ما قاله ابن الأعرابي ؛ ففي بيان معنى الحكمة يقول النسفي في تبصرته للأدلة: " اختلف في ذلك أهل اللغة قال ابن الأعرابي: إن الحكمة العلم والحكيم العالم ؛ يقال حكم الرجل يحكم إذا تناهى في علمه وعقله، ومنه سمي القاضي حكمـاً لعلمه وعقله، وقال آخرون الحكيم هو المحكم لشيء، وهو فعيل بمعنى مفعل ؛ كأليم بمعنى مؤلم، وسميع بمعنى مسمع، وقال بعضهم: الحكيم هو الذي يمنع نفسه عن هواها أو عن القبائح مأخوذ من حكمة الفرس...وقيل الحكمة معرفة الأشياء بحقائقها ووضعها مواضعها، فكانت شاملة على العلم والفعل جميعـاً ؛ فمن جعل الحكمة

= للبزدوي ٤٨، ومقالات الإسلاميين ٢/ ١٩٤، ٢/ ٢٠٩، ٢١٠، تبصرة الأدلة ١/ ٣٨٥، ٣٨٦ ، الإرشاد إلى قواطع الأدلة ٦٢.

علماً جعل ضدها الجهل، ومن جعلها الفعل جعل ضدها السفه ".[1]
وبناءً على هذا التعدد في المفهوم اللغوي لهذه الصفة قال علماء الكلام بأن صفة الحكمة الإلهية تحتمل أن تكون صفة ذات وتحتمل أن تكون صفة فعل ؛ فأبو الحسن الأشعري " ذهب إلى أن الحكمة إذا أريد بها العلم فهي صفة ذات، وإذا أريد بها الفعل فلا، وهذا هو قيام مذهبه، قال أبو بكر ابن فورك وأصلها العلم عند الأشعري، وإنما قسم الجواب لأنه عرف اختلاف أهل اللغة فيها. وأبو العباس القلانسي جعلها من باب الفعل لا غير، فكأنه ذهب إلى أنها من الإتقان أو المنع".[2]

كذلك فإن الماتريدية قد أكدوا على تلك الاحتمالية الذاتية الفعلية لصفة الحكمة، وإن كانوا قد نبهوا على أن صفة الحكمة قديمة على كلا الاعتبارين ؛ فقد جاء في شرح العمدة للإمام أبي البركات النسفي الماتريدي: " صانع العالم حكيم ؛ لأن الحكمة هي العلم وضدها الجهل، والحكيم هو العالم كما قاله ابن الأعرابي، يقال حكم الرجل يحكم إذا تناهى في علمه فهو عالم في ما لم يزل ولا يزال للكليات والجزئيات... وإن كانت الإحكام والحكيم بمعنى المحكم للشيء فعيل بمعنى المفعل ؛ كالأليم بمعنى المؤلم فهو موصوف بها في الأزل ؛ إذ التكوين أزلي عندنا كما أن العلم أزلي فكان حكيماً في الأزل كما كان

(١) تبصرة الأدلة ١/ ٣٨٤. والتمهيد لقواعد التوحيد ٦٢.
(٢) تبصرة الأدلة ١/ ٣٨٥، ٣٨٦.

عالمـاً قادراً خالقـاً رازقـاً في الأزل ".[1]

النوع الثاني: هناك من الصفات الإلهية ما قال عنها بعض المتكلمين إننا إذا نظرنا إلى نوعها وجدنا أن الله تعالى لم يزل ولا يزال متصفـاً بها، فهي لازمة لذاته، وإذا نظرنا إلى آحادها وجدنا أنها تتعلق بمشيئته وليست لازمة لذاته، ومثلوا لذلك بصفة الكلام حيث قالوا: الكلام باعتبار أصله صفة ذات، لأنه سبحانه لم يزل ولا يزال متكلمـاً، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية ؛ لأن الكلام يتعلق بالقدرة والمشيئة، وقد نقل ابن تيمية هذا القول عن " كثير من أهل الكلام كالهشامية والكرامية وأصحاب أبي معاذ التومني وزهير اليامي وطوائف غير هؤلاء يقولون إنه - أي كلام الله - صفة ذات وصفة فعل ؛ هو يتكلم بمشيئته وقدرته كلامـاً قائمـاً بذاته، وهذا هوالمعقول من صفة الكلام لكل متكلم، فكل من وصف بالكلام كالملائكة والبشر والجن وغيرهم فكلامهم لابد أن يقوم بأنفسهم، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم ".[2]

* * *

---

(١) شرح العمدة ٢١١، ١١٢، وانظر: التمهيد لقواعد التوحيد ٦٢.وانظر منح الروض الأزهر ٧٩.

(٢) الأسماء والصفات ٢/ ١٢٩.

الفصل الثاني

ضوابط علماء الكلام في التمييز بين صفات الذات وصفات الفعل

(النظرية والتطبيق)

المبحث الأول: ضوابط المعتزلة في التمييز بين صفات الذات وصفات الفعل (النظرية والتطبيق)

المبحث الثاني: ضوابط أهل السنة في التمييز بين صفات الذات وصفات الفعل (النظرية والتطبيق)

الفصل الثاني

ضوابط علماء الكلام في التمييز بين صفات الذات وصفات الفعل

(النظرية والتطبيق)

بالرغم من أن بذور تقسيم الصفات الإلهية إلى ذاتية و فعلية قد تم غرسها في مرحلة مبكرة من نشأة مشكلة الصفات في الفكر الإسلامي – كما اتضح لنا من خلال الحديث السابق – إلا أن علماء الكلام لم يكونوا قد وضعوا في تلك الفترة ضوابط تتميز بها صفات الذات عن صفات الفعل ؛ ولعل علماء الكلام في تلك الفترة المبكرة كانوا يعتمدون في التمييز بينهما على مأخذ اشتقاق الصفة، وهل هي منتزعة من الذات أو من فعل من أفعالها، بحسب وجهة كل مذهب في مأخذ هذا الاشتقاق، ومفهوم الصفة نفسها في مذهبه.

ويمكننا أن نستخلص من حديث الدكتور النشار عن فلسفة أبي الهذيل العلاف في جانبها الإلهي أنه حتى عصر أبي الهذيل لم تكن قد وضعت ضوابط كلامية للتمييز بين صفات الذات وصفات الفعل، وأن العلاف وإن كان قد توصل إلى مفهوم صفات الذات واعتبرها هي هي الذات كما في الاصطلاح الفني الكلامي عند المعتزلة فإنه " لم يكن يميز تمييزاً واضحـًا بين هذين النوعين من الصفات".[1] على حد رؤية

(١) انظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٤٥٣، ٤٥٤.

الدكتور النشار في تأريخه.

ولكن نظراً لاشتداد النزاع وحدته بين أهل السنة والمعتزلة حول ذاتية بعض الصفات أو فعليتها وخاصة صفتي الكلام والإرادة ؛ فقد واجهت كل فرقة حاجة ملحة لوضع الضابط الذي يميز الصفة الذاتية من الصفة الفعلية، وإن تفاوتت درجة الاهتمام بوضع هذه الضوابط بينهم ؛ فالمعتزلة والأشاعرة نظراً لما وضعوه من وجوه التفرقة بين صفات الذات وصفات الفعل كانوا أكثر اهتماماً بوضع ضوابط التمييز بين صفات الذات وصفات الفعل، أما الماتريدية والطحاوية فقد نظرا إلى جميع صفاته تعالى نظرة واحدة، ومن ثَمَّ قل اهتمام الماتريدية بوضع مثل هذه الضوابط وانعدم وضعها لدى أئمة الطحاوية.

وقد تكون المحاولات الكلامية الأولى لوضع الضوابط التي تميز صفات الذات عن صفات الفعل هي تلك المحاولات التي قام بها (الكعبي) وتابعه فيها بعد ذلك غيره من زعماء المعتزلة، واحتفظ لنا بها كتاب التوحيد لأبي منصور الماتريدي، ثم توالت الضوابط التي وضعها علماء الكلام بعد ذلك وزادت دقة ووضوحاً، وفي صفحات هذا المبحث - بإذن الله - سنتعرض لما احتفظت لنا به كتب علم الكلام التي وصلتنا من ضوابط وضعها المتكلمون في تميز صفات الذات من صفات الفعل.

ولكن ينبغي قبل عرض هذه الضوابط أن ننبه إلى أمر هام ألا وهو

أن الضوابط في جانبها التطبيقي سواء عند المعتزلة أو عند الأشاعرة تتأثر تأثراً كلياً بمفهوم الصفات عند كل فرقة ؛ بحيث يمكننا القول بأن اختلاف مفاهيم الصفات بين الفرق الكلامية هو الأساس الأول لاختلاف الفرق في تصنيف بعض الصفات، لا اختلاف الضوابط نفسها ؛ فهناك من الضوابط - كما سنبين - ما كان موضعاً لاتفاق أهل السنة والمعتزلة، ومع ذلك اختلفت بعض الصفات في تصنيفها، نظراً لاختلاف مفاهيم هذه الصفات المختلف عليها فيما بين الفرق الكلامية.

وسوف نلقي مزيداً من الضوء على هذا الأمر أثناء العرض التفصيلي لكل من ضوابط المعتزلة وأهل السنة.

* * *

المبحث الأول

ضوابط المعتزلة في التمييز بين صفات الذات وصفات الفعل

(النظرية والتطبيق)

وضع المعتزلة عدة ضوابط لتمييز الصفات الذاتية عن الصفات الفعلية يمكننا عرضها على النحو التالي:

الضابط الأول: ما احتمل اختلاف الحال والشخص فهو صفة فعل، وما لم يحتمل اختلاف الحال والشخص فهو صفة ذات.

وهذا الضابط بهذه الصياغة لم أطلع عليه إلا في كتاب التوحيد للماتريدي ؛ فقد عنون الماتريدي لإحدى فقرات كتابه بهذا العنوان: (آراء الكعبي في صفات الذات وصفات الفعل والرد عليها) وتحته ذكر عدة ضوابط وضعها الكعبي كان هذا الضابط الذي ذكرناه أولها، وصيغة الضابط كما أورده الماتريدي عن الكعبي: " ما احتمل اختلاف الحال والشخص فهو صفة الفعل، نحو القول: يرزق فلانا، ويرحم في حال ولا يرحم في حال، وكذلك صفة الكلام في الأحوال، ومثله في الأشخاص. ومثله في القدرة والعلم والحياة لا يحتمل فهو صفة ذات ".(١)

ولكن ما مدى دقة هذا الضابط ؟ وما مدى توافقه مع مذهب المعتزلة بصفة عامة؟

(١) التوحيد ١١٣.

من الواضح بدايةً أن الكعبي حاول أن يطابق بين ضابطه وبين مذهب المعتزلة في الصفات ؛ فقد وضح أن صفات القدرة والحياة والعلم – وهي صفات ذاتية بإجماع المعتزلة – لا تحتمل اختلاف الحال والشخص، حيث قال: (ومثله في القدرة والعلم والحياة لا يحتمل فهو صفة ذات) ؛ أي ومثل هذا الاختلاف في الحال والشخص – بالنسبة لصفة العلم والقدرة والحياة لا يصح، ومن ثَمَّ عددناه من صفات الذات.

كما أنه طبق ضابطه أيضـًا على أهم صفة متنازع عليها وهي صفة الكلام فقال: " وكذلك صفة الكلام في الأحوال، ومثله في الأشخاص "؛ أي وكذلك صفة الكلام تحتمل اختلاف الأحوال، واختلاف الأشخاص ؛ فيقال تكلم في حال دون حال، وكلم فلانـًا ولم يكلم فلانـًا فيكون الكلام صفة فعل.

ومن الواضح أيضـًا أن هذا الضابط يتأثر تأثراً مباشراً بمفاهيم الصفات الإلهية لدى الفرق الكلامية ؛ فصفة (كلام الله) كأحد أهم الصفات المتنازع على كونها صفة ذات أو صفة فعل ؛ إذا حاولنا تطبيق هذا الضابط عليها نجد ارتباطـًا ملحوظـًا بين مفهومها في مذهب المعتزلة وإمكانية تطبيق هذا الضابط ؛ فحقيقة الكلام محصورة على مذهبهم في " الحروف المنظومة والأصوات المقطعة"(١) أو على الأدق

(١) شرح الأصول السخمسة ٥٢٨.

من مذهبهم ما " يحصل من الحروف المعقولة وله نظم مخصوص"(١) وأن كلام الله من جنس كلام البشر عند المعتزلة.(٢) والكلام بهذا المفهوم يحتمل بلا ريب اختلاف الحال واختلاف الشخص.

أما مفهوم الكلام لدى أهل السنة فهو" صفة له أزلية ليست من جنس الحروف والأصوات، وهي صفة قائمة بذاته منافية للسكوت والآفة من الطفولية والخرس وغير ذلك ".(٣)

وهو بهذا المفهوم الذي وضعه أهل السنة لا يحتمل اختلاف الحال والشخص.

وقد تعرض هذا الضابط للعديد من أوجه النقد من جانب أئمة أهل السنة، فقد بين أهل السنة أن هناك صفات تحتمل اختلاف الحال والشخص ومع ذلك معدودة عند المعتزلة ضمن صفات الذات ؛ فالإمام **الماتريدي** بعد ذكره لهذا الضابط أورد في الردِّ عليه أن صفتي السمع والعلم تحتملان اختلاف الحال والشخص، ومع ذلك هما معدودتان عند المعتزلة ضمن صفات الذات ؛ يقول الماتريدي: " ثم قد

(١) المجموع المحيط بالتكليف في العقائد لقاضي القضاة /أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد، جمع الشيخ/ الإمام الحسن بن أحمد بن متوية تح/ عمر السيد عزمي، مراجعة د/ أحمد فؤاد الأهواني، ٣٠٦. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والإنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

(٢) غاية المرام في شرح بحر الكلام ٤٣٥.

(٣) تبصرة الأدلة ١/ ٢٥٩.وانظر: غاية المرام في علم الكلام ٨٨، أبكار الأفكار ١/ ٣٥٣.

يقال: سمع دعاء فلان ولم يسمع دعاء فلان ؛ ويقول الرجل: ما علم الله ذلك مني، ويقول علم مني في وقت كذا ولم يعلم مني في وقت كذا ؛ ثم لم يجب به أن السمع والعلم لا يكونان من صفات الذات، فما منع ذلك في التكليم والرحمة؟"(١)

- وكان **الأشعري في الإبانة** قد أورد قريباً من هذا الاعتراض، فقد علق فيه على مذهب المعتزلة في الصفات قائلاً: " وقد فرقوا بين العلم والكلام فقالوا إن الله تعالى علم موسى وفرعون، وكلم موسى ولم يكلم فرعون ؛ فكذلك قد يقال - أي للمعتزلة -: علم موسى الحكمة وفصل الخطاب وآتاه النبوة، ولم يعلم ذلك فرعون، فإن كان لله كلام لأنه كلم موسى ولم يكلم فرعون، فكذلك لله علم، لأنه علم موسى ولم يعلم فرعون. ثم يقال لهم: إذا وجب لله كلام به كلم موسى دون فرعون إذ كلم موسى دونه، فما أنكرتم إذا علمهما جميعاً أن يكون له علم به علمهما جميعاً. ثم قد يقال: قد كلم الله الأشياء بأن قال لها كوني، وقد أثبتم لله قولاً، وإن علم الأشياء كلها فله علم ".(٢)

وفي نقد آخر لهذا الضابط يقول الماتريدي مخاطباً الكعبي: " يقال له رأيت الخلق أقساماً يسمى عندك ببعض الخلق ولا يسمى ببعض، ثم لم يدل على اختلاف في حق الصفة، ما منع كذلك في أمر الصفات وبالله

(١) التوحيد ١١٤..

(٢) الإبانة عن أصول الديانة تح/ فوقية حسين محمود ١٤٦.